عبدالكريم قاسم

طاغية العراق

يمثل العراق الطرف الشرقى لحدود الأمة العربية ، والعرب فى العراق يشكلون ٨٠٪ من السكان والباقى ١٦٪ أكراد ، ٢٪ أتراك ، ٢٪ من الإيرانيين والهنود الأرمن .

ويدين ٩٤٪ من السكان بالإسلام أكثر من الثلث منهم على مذهب الشيعة ، والباقى على المذهب السنى .

ويصل تعداد المسيحيين فى العراق نحو ٢,٥٪ يقيمون فى المدن الكبرى كالموصل وبغداد والبصرة ، هذا إلى جانب أقلية بسيطة من اليزيديين والصابئة واليهود .

ومن الجدير بالذكر أن مساحة العراق حوالى ٤٥٣,٥٠٠ كم٢ والعراق قطر عربى عريق ، ومنذ الجاهلية كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومعز وكان له دائمًا دور كبير فى تطور الحضارة العربية والإسلامية حيث كانت بغداد عاصمة العباسيين ، هى مركز الإشعاع الحضارى للمجتمع الدولى لقرون طويلة وتجاور العراق الآن تركيا وسوريا وإيران وشرق الأردن وإذا ، كانت الخلافة

العباسية قد انتقلت من بغداد إلى القاهرة عقب الهجوم المغولى على العراق على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فإن القاهرة انتقمت للعراق بدحرها المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بسنتين ..

وبمجيء العثمانيين إلى أرض العراق ، أصبح العراق مجرد مجموعة من الولايات تخضع لإستانبول حتى هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤/١٩١٨) ، فأصبح العراق خاضعاً للانتداب البريطانى الذى كان فى واقعه احتلالاً كاملاً ، وحاول الاستعمار الإنجليزى أن يجعل العراق جزءًا من إمبراطورية الهند وأن ينقل ملايين الهنود إلى العراق حتى تزول معالم العروبة فى العراق وتتحطم قوميته العربية ، وتعرف هذه السياسة باسم « تهنيد العراق » والتى فشلت فشلاً ذريعًا ، ولكن الحركة الوطنية فى العراق تصدت للإنجليز الذين اضطروا إلى توقيع عدة معاهدات مع العراق حتى يضمنوا لأنفسهم حماية مصالحهم ، فعقدوا معاهدة يونيو سنة ١٩٢٦ ثم معاهدة يونيو سنة ١٩٣٠ ، وانتهى الانتداب البريطانى على العراق فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، وهو تاريخ دخول العراق منظمة عصبة الأمم كدولة مستقلة ولكن ذلك لم يتيسر إلا بعد أن جعلت مدة المعاهدة بين البلدين (الموقعة سنة ١٩٣٠) حوالى ربع قرن أى أن موعد نهايتها كان سنة ١٩٥٥ ولكن ا

يناير سنة ١٩٤٨ اضطرت حكومة بريطانيا إلى توقيع معاهدة جديدة فى بورتسموث مع حكومة بغداد ، وجاءت هذه المعاهدة مناقضة تماما لأمانى الشعب العراقى مما أدى إلى إلغائها .

الحكم الملكى :

فى شهر أبريل عام ١٩٢٠ أصبح العراق تابعا للانتداب البريطانى بناء على قرارات مؤتمر « سان ريمو » ، وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ توج الملك فيصل ملكًا على عرش العراق وهو فيصل بن الشريف الحسين حاكم الحجاز المعروف وفيصل هذا كان أخو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن فيما بعد .

وقد تعرض العراق فى فترة الحكم الملكى للكثير من القلاقل والاضطرابات ، والتى أدت إلى سخط الشعب العراقى على حاكميه ، وبالذات أولئك الساسة الفاسدين الذين استغلوا العهد الملكى أبشع استغلال ، نذكر من هذه القلاقل المذبحة التى قام بها الجيش العراقى بناء على الأوامر الصادرة له فى سنة ١٩٣٣ ، ونذكر أيضا ثورة القبائل على طول نهر الفرات فى سنتى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ثم ذلك الانقلاب العسكرى الذى وقع فى عام ١٩٣٦ — (أكتوبر) بقيادة الجنرال بكر صدقى ، وتم بمساعدة بعض العناصر السياسية الراغبة فى الإصلاح والساخطة على الوضع ولكن الانقلاب فشل وقتل بكر صدقى بعد أقل من سنة ، أى فى أغسطس ١٩٣٧

وفى عام ١٩٣٧ انضم العراق إلى حلف « سعد أباد » ، وكان هذا الحلف يضم إلى جانب العراق كلا من تركيا وإيران وباكستان وبالطبع حصل على « بركة الاستعمار الإنجليزى » .

وفى سنة ١٩٤١ قامت فى العراق ثورة بزعامة رشيد عالى الكيلانى ، ولكن سرعان ما قضى عليها بفضل حراب الإنجليز ، ولما وقعت معاهدة « بورتسموث » وكانت شروطها مجحفة بالعراق ثارت ثائرة الشباب سواء فى الجيش أو من المدنيين مما أجبر بريطانيا على إلغائها والعودة إلى معاهدة ١٩٣٠ ، وقد منعت السياسة البريطانية العراقيين من المشاركة الفعالة فى حرب فلسطين الأولى سنة ١٩٤٨ : وكل هذا بلا شك كان يمهد لمزيد من السخط الشعبى ، ولم يلبث ساسة العراق فى العهد الملكى أن جروا العراق إلى سياسة المحالفات إلى المعسكر الغربى ، ونظير إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٠ ، والتى كان من المفروض أن تنتهى فى عام ١٩٥٥ بشكل تلقائى ومن هنا نجد العراق فى شهر فبراير ١٩٥٥ يتحالف مع حكومة تركيا وفى أبريل من نفس العام تنضم إلى هذا التحالف بريطانيا ، وفى سبتمبر تلحق بهما باكستان ثم فى أكتوبر من نفس العام أيضا تضم لهم إيران ، وهكذا اكتمل حلف بغداد من خمس دول فى سنة ١٩٥٥ هى العراق ، تركيا ، بريطانيا ، باكستان ، إيران وكان بطل هذا التحالف من الجانب العراقى السياسى الداهية نورى

السعيد والذى كان عدوا للحركة القومية العربية على حساب الارتباط بالمصالح الغربية .

والعجيب أن العهد الملكى كان يضم مجموعة من الأحزاب وانتخابات برلمانية وبرلمانات تمثل كل الاتجاهات ، ولكن الشكل العام للممارسة الديمقراطية كان فى الواقع أسطورة كاذبة ، وكان أعوان الاستعمار يخدعون بها العالم الخارجى فيزيفون الانتخابات فى نفس الوقت الذى تمتلىء فيه السجون بالأحرار ، وطالب الوطنيون بضرورة التغيير ، بعد أن أصبح التغيير مطلبًا ملحًا وإلا فإن تأجيل الإصلاح الحقيقى نذير بالثورة ، وهكذا لا نستغرب أن نجد توفيق السويدى يخطب فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٨ فى مجلس الأعيان العراقى قائلاً :

« إن الدستور العراقى بوضعه الراهن ليس دستورًا إنه أشبه باتفاقية أو معاهدة ، إن تطور الزمن يقضى بتعديل الدستور ، إن سياسة العراق فى ظل الدستور الحالى سياسة غير برلمانية ، التقاليد الدستورية بعيدة عن تطمين الناس . الحكومات تستقيل وتؤلف غيرها ، لا يعرف أحد أسباب تبديل الوزارات ، السياسة الاقتصادية عندنا فاشلة ، السرقات منتشرة ، الرشاوى شىء عادى .. » .

وهكذا يمكن أن يقال إن العراق كان مستعدًا لتقبل ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وأن المناخ السياسى كان يتنبأ بتلك الثورة قبل وقوعها .

عبد الكريم قاسم والسلطة :

قصة حكم عبد الكريم قاسم للعراق قصة طويلة ، تناثرت فيها الأشلاء وسفكت فيها الدماء ، وانتهكت فيها الأعراض والحرمات وديس فيها جميع قيم الشعب .

لم يكن عبد الكريم قاسم هو صاحب ثورة العراق التى قامت ضد الحكم الملكى فى ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، بل كان المخطط الأصلى هو عبد السلام عارف ، محمد حبيب ، عبد الجبار الجومرد ، ولكن عبد الكريم قاسم هو وحده الذى نجح فى السيطرة على زملائه ، وفور نجاح الثورة احتكر لنفسه رئاسة الوزارة العراقية ووزارة الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، بينما جعل من عبد السلام عارف نائبًا له ووزيرًا للداخلية ، وأعطى للضباط زملائه ثلاث وزارات هى وزارة المالية للزعيم الركن عبد الجبار الجومرد ، الشئون الاجتماعية للزعيم الركن ناجى طالب ..

ولما وجد عبد الكريم قاسم أن خط سير الثورة لا يسير وفقًا لهواه سرعان ما تحالف مع الشيوعيين العراقيين ، وكذلك بعض العناصر الشعوبية لضرب التيار القومى الوحدوى الذى كان يقوده عبد السلام عارف ، ونجح عبد الكريم قاسم فى ضرب وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة التى كان قد أعلن عنها بين مصر وسوريا قبل قيام ثورة العراق بخمسة شهور تقريبًا .

ولذا كانت الضربة الأولى ضد عبد السلام عارف ، ثم تلتها لضربة الثانية وهى ضرب المواقع القيادية فى الثورة العراقية التى كانت تخطط للنهج العربى الوحدوى وسنده .

وتبدأ الخطوة الثالثة بالانطلاق الهمجى الشرس ضد كل العناصر والفئات والمنظمات والمؤسسات القومية المؤمنة بالوحدة وبتحرير لشعب وبإقامة المجتمع العادل ..

واستعان بالشيوعيين العراقيين الذين مثلوا مخلب القط المتعاون معه لتحقيق مخططه ظناً بذلك أنه أذكى منهم ، ولم يكن يدرك نهم بدورهم يستغلونه لتحقيق مطامعهم فى العراق حيث بدءوا فى الوقت نفسه يطرحون شعاراتهم الخاصة ويحققون المكاسب لحزبهم تدريجياً ، ونجحت الحركة الشيوعية العراقية فى التغرير بعبد الكريم قاسم والسيطرة عليه تماماً عن طريق الادعاء بأنها تريده أن يكون الزعيم الأوحد فى العراق وعملت على الترويج لهذه الفكرة بين أتباعها وفى نشراتها وصحافتها .

ومن خلال هذه الفكرة الخبيثة ، أوقعت بين ثورة العراق وبين عبد الناصر بحجة أن عبد الناصر لو توحدت العراق معه سيسيطر على ثورة العراق وسيصبح عبد الكريم قاسم فى الظل ، وعلى هامش السياسة وبالتالى يفقد شخصيته المميزة .

سنوات حكم قاسم :

وقد حكم عبد الكريم قاسم العراق فى الفترة من ١٩٥٨ (يوليو) حتى فبراير ١٩٦٣ ، ولكن فى خلال هذه السنوات الخمس حفر سطورًا سوداء فى تاريخ العراق تاريخًا مضغوطًا مركزًا استوعبت أحداثًا جسامًا دفعت إلى المسرح العربى السياسى بشكل أعاد إلى الأذهان فترة العصور الوسطى .

ولعل ما حدث يجب أن يكون درسًا للشعوب قبل أن يكون عظة للثوار ومن هنا علينا أن نقف لحظة فاصلة فى تاريخنا نتأملها لا بنزعة تأملية مجردة ، ولكن بنزعة من يهدف إلى فهم واقعه وإلى فهم تاريخه وإلى فهم وجوده .

فقد قلب عبد الكريم قاسم كثيرًا من القيم ، ومزق كثيرًا من المفاهيم ، لقد كان النظام القاسمى الشعوبى الأسود تحديًا لشخصية العربى فى العراق ، تحديًا لإمكانيات هذه الشخصية وطاقاتها ونزوعها للنمو والاتساع ، إن هذا النظام الذى أقامه عبد الكريم قاسم فى العراق كان تحديًا ولا شك ، كان تحديًا لآمال جماهيرنا العربية فى الوحدة وفى الحرية الاشتراكية على السواء ، لقد كان نظامًا أقيمت قواعده المزورة ورفعت دعائمه المصدعة لا من أجل تحقيق أمل شعبى ، بل من أجل ضرب كل مطمح جماهيرى ، وكل نزوع شعبى ضحى من أجله الشعب ، ومارس أساليبه الثورية بصلابة وإيمان .

لقد وجه عبد الكريم قاسم طعناته الغادرة لكل ما هو عربى ، لجميع أهداف جماهيرنا العربية ، لقد تحدى الشعب بدماء أحراره التى أسالها ، وخلال فترة حكمه التى استمرت ما يقرب من خمس سنوات حكم العراق حكمًا فرديًا مطلقًا وأمعن فى القضاء على حقوق العراقيين السياسية بمطاردة الأحرار وأخذ الأبرياء بالشبهات وتحالف مع الشيوعيين ضد القوميين ، ونكل بالمثقفين وزجهم فى السجون والمعتقلات وفرض الرقابة على الصحف ، وفى مثل هذا الجو الخانق وفى ظل هذه الأوضاع الشاذة كان لا يمكن لشعب العراق أن يسكت .

وفى عهد عبد الكريم قاسم نصبت المشانق للوطنيين ، وعبثت السجون بالأحرار الثوريين وأبعد الكثيرون عن أرض الوطن ، وسحل الشباب فى الشوارع وهدمت المنازل على من فيها إذا ضمت معارضًا واحدًا يعلو صوته فوق صوت الزعيم ، بأختصار لم تعد هناك حرمة لمقدس أو احترام لقانون ، لقد استبيح كل شىء وأصبح لكل عائلة عراقية شهيد أو سجين أو مبعد أو مطارد ، لا يعرف متى يصطاده رصاص الحرس القاسمى ولم يعد ثمة من أمان لأحد ، فالذين يخرجون من بيوتهم فى الصباح لا يعرفون أيعودون إليها فى المساء أم لا ، وكثيرًا ما كانت تصدر الأحكام الثورية ويشطب اسم أى مواطن من قائمة الأحياء دون ضجة أو ضوضاء .

لقد بدأ عبد الكريم قاسم فور انفراده بالحكم ، بدأ حملة انتقا
همجية ولم توجه هذه الحملة ضد أعدائه فحسب ، بل ضد من
تصور أنهم قادرون على منافسته فى الحكم أو تحديه على السلطة
إن شهداء الحرية فى العراق ، أولئك الذين نصب الحكم الأسو
لهم خلال حكم عبد الكريم قاسم ، نصب لهم المشانق وحصد
منهم الأرواح ، هؤلاء لن ينساهم التاريخ لما قدموه فى مواجه
أبشع حكم بربرى فى الوطن العربى .

الزعيم الأوحد :

والواقع أن حقيقة الصراع الدموى الذى أغرق فيه قاسم شعب العراق ، حتى كادت أمواج الدم أن تحجب عنه جلاء الرؤيا ، بل لقد حجبتها فعلاً ، لم يكن ذلك إلا حربًا عقائدية عنيفة ، وليس خلافً على نظام أو اتجاه سياسى ، فهو خلاف بين القومية العربية الحريصة على عروبة العراق وتحريره من السيطرة والتبعية وبين القوى الأخرى التى تعمل على عزل العراق عن جسم الأمة العربية .

وهكذا فى ظل فكرة الزعيم الأوحد والشخصية المستقلة ، جر عبد الكريم قاسم العراق إلى هاوية سحيقة عزلته عن الركب العربى المتحرر ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها وقفت ضد التيار الثورى الوحدوى ، وعطلت تقدمه ويمكن بهذا أن نقول إن ما فعله العهد الملكى قد فعل مثله عبد الكريم قاسم فى ظل حكم جمهورى .

وأسوة بكل الشعوب الحية فى مواجهة حكم الطغاة كان عبد الكريم قاسم يواجه ثورات شعبية عارمة ، ولعل أخطرها ثورة الموصل التى قادها الشهيد عبد الوهاب الشواف وصحيح أن ضحايا هذه الثورة كان يعد بالمئات لأن قاسم قضى عليها بعنف وقسوة ، ولكن يمكن أن يقال إن الخط البيانى أصبح فى غير صالح قاسم وأعوانه بعد هذه الثورة وأن العد التنازلى بدأ بعدها لإنهاء حكم الديكتاتور الأوحد .

وبالطبع تعرض عبد الكريم القاسم لأكثر من محاولة اغتيال ، ورصدت حركة المقاومة ضده العديد من هذه المحاولات لدرجة أن فرقًا ثورية تكونت لمواجهة حكم أشبه بحرب للعصابات وكان يرأس بعض هذه الفرق وطنيون وحدويون مثل إياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمى ، ومدحت إبراهيم جمعة ، وعبد الله الركابى ، ولكن أى من هذه المحاولات لم تفلح للقضاء على الطاغية الذى لم يتورع فى إعدام زملائه من الضباط الأحرار بعد سنة واحدة وشهرين : ففى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ أعدم عبد الكريم قاسم زهرات الضباط الأحرار وهم ناظم الطبقجلى ، رفعت الحاج سرى ، فاضل الشقرة وكلهم شباب ملىء بالحيوية والغيرة الوطنية ، ولكن هكذا حكم الطغاة ، مصيدة الحرية وحرابا على الشرفاء ظنًا منهم أن ذلك كفيل بتصفية الجو والتمهيد لحكم طويل بلا معارضة

ولكنهم ينسون أن كل جرح من جروح الشهيد فم يصرخ بالثأر وأنين الشعوب لا يخفت أبدًا والماضى لا يموت ، والزمن لا ينسى الجراح .

ولقد كان انسحاب مجلس السيادة من ممارسة أعماله واستقالة العضو محمد مهدى ، ثم استقالة فائق السامرائى سفير العراق فى القاهرة ، وعدد كبير من المسئولين فى حكومة ١٤ يوليو إدانة كاملة لعهد عبد الكريم قاسم ، الذى جعل العراق سجنًا كبيرًا للأحرار ، ولطخ بيديه دماء أبناء الشعب العراقى وقال سفير العراق فى القاهرة إنه ينأى بنفسه أن يكون « سفيرًا لعصابة حمراء » .

الرجل اللغز :

لقد كان عبد الكريم قاسم هو أحد هؤلاء الرجال الذى حماه الاستعمار بدعايته ونشراته ومراسليه ، حتى أصبح لغزًا فى العالم فى حين أنه شخص ذو كفاءات محدودة . ولقد ظهر اتجاهه الديكتاتورى منذ وقت قيام للثورة ، فكان يصر على أن يعقد مجلس الوزراء فى مبنى وزارة الدفاع وأن يجتمع المجلس مع مجلس الرئاسة أمامه حتى لا يستطيع أحد أن يناقش أو يبدى رأيًا ما لم يقره قاسم عليه .

كان قاسم يتبع أسلوب المماطلة فى إدارة دفة شئون الحكم أكثر مما يحتمل الموقف وكان دائمًا يبعد عن أسلوب الصراحة ، لم تكن

له هوية محددة بل كان كرسى الحكم هو هويته ، وظل مشتت التفكير ضعيف الثقافة قليل الخبرة بأمور الدولة منذ اليوم الأول لحكمه ، حتى مقتله وكان لا يفارق سلاحه قط ويبيت فى وزارة الدفاع ولم يتخل يومًا عن ملابسه العسكرية ، عرف عنه الغدر فقد قام بإعفاء عبد السلام عارف من منصب نائب القائد العام ثم أعفاه من منصب الوزارة ، لأنه اعتقد أن عارف ، هو العقبة أمام انفراده بالسلطة حيث أن عارف هو الذى ظهر أمام المجتمع العراقى أنه منفذ الخطة ومحرز النصر ، وفى الواقع لولا جسارة عبد السلام عارف ومهارته واستيلائه على الإذاعة ما كانت الثورة قد نجحت ولهذا اندفع الشعب وراءه كبطل ومن هنا كان عارف فى نظر قاسم هو الحجر الأول أمام سيطرته ونفوذه خاصة وأن عارف أيضًا كان بمثابة « الدينامو » فى مجلس الوزراء ، ومعروف بنزاهته وصراحة أسلوبه وقدراته على المواجهة والمناقشة وكان لا يحمى أحدا من العهد الماضى ، وإنما ينظر إليهم على حد سواء بينما كان قاسم يحابى ويحمى بعضهم ، فقاسم كان يعتقل أناسًا من العهد البائد لا قيمة لهم ويترك بعض المخربين والفاسدين .

وكان قاسم فى الواقع مصابًا بلوثة عقلية انبهارًا بالوضع الذى أصبح فيه وما أحاطته به وسائل الدعاية والإعلام الغربية بصفة خاصة ، وكان يهتم كثيرًا باقتراحات ترد إليه من مستشفى المجانين ، ويقرأ

بعضها علنًا فى مجلس الوزراء ، ويستشهد بها أنها تمدحه ، ومن ثم لا نستغرب إذا ادعى قاسم أنه هو كل شيء وأنه فوق كل شيء فى العالم أجمع ، لقد عاش قاسم فى وهم وسط مستنقع من تعبيرات المدح والثناء والنفاق ، بحيث أصبح يدور حول نفسه ويمجد نفسه بنفسه ناسيًا واقعه راضيًا بالسراب الذى يعيش فيه من خلال نظرات المستفيدين من حوله .

اتجاهات قاسم :

وسوف يثبت التاريخ أن عبد الكريم كان مواليا للغرب وللشيوعيين أكثر من ولائه لأمته العربية ، وإذا كان قد ترك للحزب اشيوعى حرية العمل ، فذلك لأنه وجد الكثير من الصفات التى يريدها فيمن يساعدونه على تحقيق مآربه ، وكان التعذيب شيئًا عاديا فى عهد عبد الكريم قاسم مارس هذا التعذيب بألوان متعددة وبأساليب متقدمة كانت تسمى عملياتها «حفلات الترفيه» ، وكان يمكن أن يحجز أى مواطن فى المعتقل دون إبداء الأسباب ، وهناك من يكتفى بالسخرية منهم والاستهزاء بالسب والشتم وهناك من يوجه لهم التهديد ومحاولة تحطيم الأعصاب ، وإشاعة المفتريات وهناك من يضربون ويجلدون بالعصى والهراوات ، وهناك من يشنقون بالحبال ، وآخرون يعتدون عليهم جنسيًّا والبعض تطلق عليهم الكلاب لتمزق أجسادهم إلى غير ذلك مما نقرأ عنه فى عهود البربرية الأولى

أو يزيد ، ووصل الأمر إلى حد تجسس العائلة بعضها على بعض وإلى فرض العقوبات الاجتماعية ، ولقد انتقلت السلطة الحقيقية في المعتقلات والسجون من الموظفين الرسميين إلى الحزب الشيوعي العراقي .

محكمة المهداوى :

ولعل أسوأ ما يلصق بعهد عبد الكريم قاسم « محكمة المهداوى » التي فاقت محاكم التفتيش ، والتي قال عنها عبد الرحمن البزاز سفير العراق بعد ثورة ١٤ رمضان في القاهرة :

« إن المحاكمات التي أجريت أمام محكمة الشعب أساءت إلى فكرة العدالة ومهنة القضاء بل وإلى الشعب العراقي كله إساءة بالغة ، لا يمكن تكفيرها بغير زوال العهد الإرهابي من أساسه ، وأن ضميري كان يوخزني أشد الوخز حين كنت أستمع إلى تلك العبارات المبتذلة وحين كنت أبصر تلك المهازل التي كانت تمثل على مسرح ما كان يسمى « بمحكمة الشعب » من أشخاص لا أحد في اللغة العربية كلمة تصدق عليهم » .

وكانت الأحكام الصادرة من تلك المحكمة ضد قادة الثورة والضباط الأحرار والطريقة البشعة التي نفذت فيها أحكام الإعدام لتوضح لنا روح الانتقام والإرهاب التي سادت عهد عبد الكريم قاسم طاغية العراق .

لقد بذر عبد الكريم قاسم عوائد النفط ، وضخم فى أجهزة الأمن تضخيمًا خياليا امتصت جزءا كبيرًا من ميزانية الدولة ، وفى عهده تدهور الإنتاج الزراعى إلى الحضيض وعمت البطالة صفوف العمال ، وعانى الشعب العراقى من غلاء فاحش وتوقف فى التجارة الداخلية ، ووصل عدد من سفكت دماؤهم الطاهرة على يد هذا السفاح الطاغية ، وعصبته المجرمة أكثر من ثمانين ألف شهيد ، وأكثر من عشرين ألف مفقود وثلاثين ألفا ما بين معتقل وسجين بدون سبب قانونى ، وقد اضطرت حكومة قاسم تلافيا لمجاعة مروعة تحل بشعب العراق ، اضطر إلى فتح باب الاستيراد للمواد الغذائية على مصراعيه .

عائلة الطاغية :

وكعادة كل الطغاة نجد أحد إخوة الزعيم الأوحد « حامد قاسم » يصبح بين يوم وليلة من كبار الأثرياء وكان سمسارًا لا يملك فلسا فأصبح من كبار التجار المستوردين للقمح والأرز ، هذا إلى جانب أقارب الزعيم الذين كانوا شريحة ثرية مستغلة ، ويمكن أن يقال إن من السهل أن نغفل لطاغية مثل نيرون أو مثل جنكيز بعض أفعالهما حيث كانت سمة العصر هى الحكم المطلق ، والتمتع بالسلطة واستغلال الشعوب ولكن فى منتصف القرن العشرين يصبح الحكم

المطلق سبة فى جبين البشرية ويصبح وجود الطاغية سطورًا سوداء فى تاريخ الشعوب .

الفصل الأخير :

لقد سرق قاسم ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ، على حين غرة وغفلة ، ومعها سرق أمل الشعب العراقى فى التطور والتقدم ، وعاد العراق إلى عهود الاستبداد والاستعباد وتحكم فى حريات الشعب وبدد ملايين الدنانير على الوفود والاحتفالات والمسيرات والمؤتمرات بلا طائل ولا عائد ، وكان يحلو له أن يقلد الأباطرة والأكاسرة والسلاطين .

ومن أجل ذلك كان لابد أن يسقط وكان لابد وأن تنتهى قصته تلك القصة التى تقول إنه كان ثانى ابن لأب من أصل متواضع ، وأنه دخل الكلية الحربية وكان يكره الثقافة ولا يحب السياسة معزولاً عن زملائه صامتا ، ترى فى عينيه بريقًا لا يعبر عن عبقرية بقدر ما يوحى بالجنون ، كان له أخ أكبر منه هو حامد وعاش فى صغره محرومًا حاقدًا وشخصيته مهزوزة وغير ثابتة ، وعاش حياته محتميًا بغيره ، لا يحب المواجهة ولكنه يعشق الالتواء ، لا يتعامل بالأخلاق وإنما تهمه المصلحة عاش فى تحالفات متناقضة من أجل تحقيق أهدافه ، ظن أنه أذكى من كثيرين ممن حوله ولكنه فى الواقع كسب شيئًا واحدًا وهو لعنة شعبه إلى الأبد .

وفى نهاية أيامه عمت الاضطرابات والفوضى والإضرابات كل مدن العراق الكبرى إلى درجة أن قام قبل سقوطه بشهرين باعتقال أكثر من ٥٠٪ من طلبة بغداد ، حيث فقدت مخابرات قاسم أعصابها تمامًا فانطلقت تلقى القبض على طلبة صغار لم يتجاوزوا الخمسة عشر عامًا ، وبدأ يظهر على قاسم الخوف والقلق والهلع من الغد المجهول الذى بدأ مع صبيحة يوم الجمعة ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ ، وقاد الثورة ضد قاسم زميله السابق عبد السلام عارف مع أحمد حسن البكر مع مجموعة من الضباط الأحرار وأحس قاسم بالنهاية فبدأ يهلوس بالمفاوضات والاستسلام ، ولكن الثوار كانوا يعرفون غدره ، لذلك دكوا وزارة الدفاع وقفز عبد الكريم قاسم من سور الوزارة ولكن سرعان ما عاد إلى داخل المبنى ، ثم هرب إلى المسجد المجاور وقفز منه على مبنى قاعة الشعب ، وهى مسرح كان مخصصًا لحفلات قاسم وأتباعه ومن فوق سطح المبنى دخل القاعة فحاصرته الجنود من ناحية وهى تصيح « سلم يا طاغية » .

وتكلم قاسم مع عارف بالتليفون متوسلاً إليه أن يبقى على حياته وكان رد عبد السلام عارف أن الأمر لا يعود إليه وحده بل إلى زملائه .

فقال قاسم : أتريدنى أن أنتحر ، ورد عارف قائلاً له : « سلم نفسك » إلى المجلس الوطنى ، وقال قاسم : إنه مستعد للتسليم

.ون خلع الملابس العسكرية وبدأت تظهر عليه علامات الانهيار لتام حيث كان يقفز من فوق الأرض مع انفجار كل قنبلة أو نذيفة مدفع كأنه يسمعها لأول مرة .

وبدون أن يدرى قدم قاسم جميع أعوانه إلى الاعتقال ، لأنه كان يتصل بهم خلال حصاره بالتليفون فيعرف أماكن تواجدهم ، نيعتقلون فورًا ، وكان ضمن من سلموا مع قاسم ، قريبه المهداوى الذى ظهر الفزع عليه ، وكان يتوسل باكيًا قائلاً للضابط الذى اعتقله : « لا تقتلنى يا سيدى » ، أما قاسم فكان ساكتًا كالموتى بينما كان « بيريا » العراق وهو الشيوعى طه الشيخ أحمد تعجز ساقاه عن حمله ، ورابعهم هو قاسم الجنابى ..

وفى الطريق إلى محاكمته حاول أن يتظاهر بتمالك أعصابه فرفع يده محييًا الجنود ولكنه فوجىء بالشعب والجنود يصفقون على وجهه فزاد وجهه اصفرارًا وارتعش جسده .

وكانت التهم التى وجهت له فى محاكمته هى أربع تهم :

١ - قاسم عدو الشعب سخر موارد البلاد لشهواته وتأمين مصالحه هو ومن معه .

٢ - صادر الحريات وداس الكرامة الوطنية وخان الأمانة وعطل القوانين واضطهد المواطنين .

٣ – استغل منصبه واندفع بكل الوسائل الدنيئة والأساليب الإجرامية لإقامة حكمه الأسود .

٤ – أفقر البلاد وصدع الوحدة الوطنية وعزل العراق عن ركب العروبة المتحررة ، وطعن أماني الشعب القومية وترك لأهله وأقاربه الفرصة للإثراء الفاحش على حساب الشعب .

كان عبد الكريم قاسم أسوة بكل الطغاة يحقد على كل صاحب مبدأ أو رسالة ، يظهر غير ما يبطن ، الخديعة دائمًا مرتسمة على وجهه ولا يحب إلا نفسه ، كان يدعى الزهد وهو فى ذات الوقت يقيم فى جناح لا يسكنه إلا الملوك ، كان يحب الحياة أكثر من الحياة ذاتها ، لقد قتل الآلاف لينفرد بالحياة ثم انتهى مصيره إلى القتل حيث كان القصاص العادل حرمانه من هذه الحياة التى حرمها على الكثيرين .

ولقد جاء قاسم إلى دار الإذاعة حيث عقدت محاكمته وكان متخاذلاً وفى ذهول ويرتجف وغير قادر على الوقوف على قدميه ووضح من المحاكمة أن عبد الكريم قاسم لم يكن يعرف تفصيلات خطة ثورة ١٤ يوليو ، ولم يشارك فى وضعها ولم يعد البيان الأول لها ، وكيف كان يدعى النزاهة بينما يترك أخاه الذى أطلق عليه العراقيون « البرنس » حامد رئيسًا لنادى التجارة ، وله أموال باسمه فى بنوك أوروبا وأمريكا تحت أرقام سرية .

وكان عبد الكريم قاسم نفسه يدعى أنه لايملك سوى القميص الذى يرتديه بينما كان يعيش فى جناح يشبه أجنحة أعظم فنادق موناكو أو جزيرة كابرى .

بعد المحاكمة قرر المجلس الوطنى إعدام عبدالكريم قاسم بالرصاص حتى الموت وجاءت النهاية فى تمام الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت يوم ١٥ رمضان ١٣٨٢ الموافق ٩ فبراير ١٩٦٣ ، وهكذا لقى الطاغية حتفه تحت أقدام الثوار ولم يفلت المجرم الجلاد والطاغية السفاح من كل ما قدمت يداه .